آليات المنهج النقدي الخلدوني

أ. حكيمة بوبعيو المولودة بوقشبية
قسم علم الاجتماع
جامعة عنابة

ملخص

يتناول هذا المقال بالدراسة والتحليل أهم الميكانيزمات المنهجية التي حاول ابن خلدون تطبيقها على الظاهرة الاجتماعية وذلك في ضوء فرضيات وتساؤلات مكنته من أن يكون سباقا في عصره إلى اكتشاف أهم القواعد التي تجعل النتائج المرتبة في الدراسات السوسيولوجية أقرب إلى الموضوعية.

Résumé

Nous avons essayé à travers cette étude analytique de dégager certains mécanismes méthodologiques auxquels « IBN-KHALDOUN » a fait recours. Choisissant comme modèle type une série de sociétés marquant le point sur un ensemble de phénomènes d'ordre sociologique, économique, et politique, à partir d'un certain nombre de questions et d'hypothèses qui pourraient contribuer à réaliser l'objectivité qui s'est avérée dans le domaine des études sociologiques en proposant certains thèmes dont nous avons fait part.

قد لا نحيد عن جادة الصواب حين نذهب إلى أن معرفة المجتمع الشاملة قد تنطوي على نظرية سوسيولوجية، حاول لفيف من العلماء إخراجها إلى النور، وذلك من خلال محاولات بنيت على عدد من التساؤلات كانت بؤرها مركزا على مواصفة الواقع الاجتماعي بواسطة الفكر النظري التأملي التخميني الافتراضي، أو بواسطة التفكير العلمي الدياليتيكي، أو بواسطة التفكير العلمي التجريبي الواقعي.

لقد تأتى هذا المنتوج العلمي والابتكار الفكري -إذن- في ضوء سيطرة الإنسان على عالمه الطبيعي، وبنائه الحضاري، واختراعه للكتاب الذي مكنه من حفظ تراثه الثقافي والاجتماعي. ومن ضمن الأولويات التي وضعها العلماء نصب أعينهم مسألة إصلاح المجتمع من حيت الوقوف عند مركباته ومعالجة قضاياه الاجتماعية، ولقد تركزت تلك المعالجة، إلى -حد بعيد- على العلم والمعرفة، كما أنها عنيت بالدعوة إلى معرفة طبيعة المجتمع، من حيث ضرورة التجمّع الإنساني وأصوله وعوامل استقراره، وتوازنه وتفككه، والوقوف على عوامل تطوره، مما ينم عن تعدد المسائل الحضارية والثقافية والسلالية، وهكذا تعددت الاتجاهات وتشعبت الآليات المنهجية، في مثل تلك المعالجة، مما تمخض عن ذلك ظهور مدارس قائمة بذاتها، ومنها المدرسة الخلدونية التي شكلت حركة علمية اكتسبت الطابع العالمي نظرا للفكر التركيبي الذي كان يتميز به صاحبها. فالباحث المدقق لآراء ابن خلدون يلمح في ثناياها كثيرا من القضايا والمسائل والموضوعات التي أبرزتها النظريات الاجتماعية، والتي أثبتت أن التفكير الاجتماعي الخلدوني مبني على نزعتين؛ نزعة خيالية إيتوبية في تحديد صفات وخصائص المدن الفاضلة ونزعة دينية. تمثلها الآراء الاجتماعية التي انطوت عليها كل من الفلسفة المسيحية والفلسفة الإسلامية[1] وتتجلى عبقرية ابن خلدون ليس في ابداعه لعلم العمران أو علم الاجتماع فحسب، بل في إرسائه لقواعد منهجية أصيلة تدل على قدرة منهجية عقلية علمية تمتلك المنطق السليم، وقد وضع عدة قواعد اعتبرها أساسية للبحث في علم الاجتماع وإيضاح طريق هذا العلم ومنهاجه. واللافت للانتباه أن هذا العالم الاجتماعي ركز دراسته على الظواهر الاجتماعية التي تختلف عن دراسة الظواهر الطبيعية والتي تخضع لقواعد ثابتة، وهنا مكمن وجه الخلاف لأن الظواهر الاجتماعية لا تستقر على حالة واحدة فهي في تطور مستمر وتغير متواصل. وفي هذا الصدد يقول: إن أحوال العالم والأمم وعوائدهم ونحلهم لا تدوم على وتيرة ومنهاج مستقر، وإنما هو اختلاف على الأيام وانتقال من حال إلى حال»[2]. ومفهوم التغير من السمات التي لازمت الإنسانية منذ فجر نشأتها حتى عصرنا الحاضر، مما جعلت علماء الاجتماع يفردون لها مؤلفات بكاملها لمعالجته وتحديد اتجاهاته والنظريات التي صيغت حوله من منظورات متعددة، وتعد الظواهر الاجتماعية أساس هذا التغير حيث يعمل ابن خلدون على وصفها مستندا في ذلك إلى دراسة الجزئيات ضمن الكليات معتمدا على التحليل لأنه يسهم في الكشف عن طبيعتها وعن الأسس التي تقوم عليها والقوانين التي تخضع لها، ودراسته للظواهر الاجتماعية جعلته يتقيد بمنهج محدد ذي منطلقات

نقدية، جاعلا من الموضوعية الاجتماعية أحد الركائز الأساسية، ومحاولة الكشف عما يعرض لها لذاتها، وفق طبيعتها والتدرب على تلك النظرة أو ذلك الأسلوب حتى تصبح ملكة له. ويلتقي في هذا الطرح مع "دوركايم" الذي أورد الموضوعية على أنها قدرة الباحث على ملاحظة الظواهر الاجتماعية ودراستها على ما هي عليه في الواقع أي باعتبارها أشياء، وقد سبقه ابن خلدون في هذا الحكم حين أكد في مقدمته:« فللعمران طبائع في أحواله، وأنه يجب أن ننظر فيه ونميز ما يلحقه من الأحوال لذاته، وبمقتضى طبعه وما يكون عارضا لا يعتد به وما لا يمكن أن يعرض له»[3]. «وإذا لم تحكم أصول العادة وقواعد السياسة وطبيعة العمران والأحوال والاجتماع الإنساني، وإلا قيس الغائب بالشاهد والحاضر بالذاهب، فربما لم يؤمن فيها من العثور ومزايا القدم والجيد عن جادة الصدق»[4]. وتتجلى عبقرية ابن خلدون في أنه لم ينشئ علم الاجتماع الإنساني والعمران البشري فحسب بل إنه قد وضع أيضا لهذا العلم قواعد منهج أصيلة وطرائق مبتكرة، فهو يقول عن علمه الجديد: « واخترعته من بين المناحي مذهبا عجيبا وطريقة مبتدعة وأسلوبا»[5]. حيث يعالج الحقائق الاجتماعية كما هي مشخصة في الوجود المادي وفي الوجود الاجتماعي، وكشف عن أسباب وكيفيات الوقائع والأحوال، وحدد ذلك بقوله عن علم التاريخ الذي هو علم اجتماع الماضي « وفي باطنه نظر وتحقيق وتعليل للكائنات ومبادئها دقيق وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق»[6]. ويحرص كل الحرص على تقصي عناصرها ثم يعنى بترتيبها حسب طبيعتها وأهميتها من خلال المركبات التي تتألف منها مع الأخذ بعين الاعتبار التباين والتماثل «وفي هذا الإطار يحتفظ ابن خلدون في ذهنه بصورة كل عنصر وكل مركبة من مركبات النظام الاجتماعي التاريخي ليستطيع فيما بعد أن يقيم بينها جميعا مقاربة نظامية»[7].

والمعروف أن العلم بصفة عامة يعتمد على أسس منهجية معينة ليصل إلى نتائج يقينية وثابتة في ضوء الأدلة والبراهين القاطعة، ومن هذا المنطلق سعى ابن خلدون إلى وضع قواعد منهجية وحددها في خمس وعشرين صفحة تحت عنوان "المقدمة" ومقدمته من أولها إلى آخرها تزخر بعبارات صريحة واضحة تتعلق بقواعد المنهج وطرائق البحث، وطبق مثل هذه القواعد على الواقع الاجتماعي المحسوس أو الواقع الاجتماعي المادي، وأنه ينصح الباحث عند تمحيص الأخبار أن يميز بين طبيعة الممكن والممتنع، ولعل هذا الطرح نابع من أن ابن خلدون اهتدى في أواخر القرن الرابع عشر إلى فكرة الوضعية التي نادى بها أوجست كونت[8]. غير أن هذه الوضعية ينتابها شيء من المثالية فيها نظرة فلسفية تجعل نظرته لطبيعة المجتمعات والقوانين غير مبنية على المبدأ الحقيقي لتطور الإنسانية.

رغم تأثره بـ"أوجست كونت" فإننا نجده يمجد الواقعية الاجتماعية، ويجعل من الوجود الاجتماعي شغله الشاغل، كما هو مشخص في الكائنات والوقائع والأحوال من خلال البحث عن الأسباب والعلل، لأنها تساعد في الوقوف عند العوامل الكامنة وراء كيفية تطور الظواهر أو العكس. ويتجسد المنهج النقدي عند

ابن خلدون فيما قدمه من ملاحظات منهجية وخاصة فيما يتعلق بالمؤرخين، وتعد مادة التاريخ من المواد الأساسية التي انطلق منها في تأسيس أهم طرقه المنهجية، "نجده يشرح المغالط والمزالق التي يقع فيها المؤرخون ويبين أسبابها بأسلوب علمي نقدي، وهذا يدل على عمق تفهم الطبيعة البشرية وأحوال المجتمعات وطبيعة العلاقات الاجتماعية، ثم يحدد المنهج العلمي الذي يقي الباحثين من الخطأ والبعد عن الحقيقة[9]. ويبدو أن هذا الضعف المنهجي راجع إلى أن هؤلاء المؤرخين ساروا على مناهج تفتقر إلى الدقة والملاحظة والتجارب مع المقارنة والتحليل وعدم تحكيم العقل. ومن الأسس النقدية التي تبناها ابن خلدون في تأسيسه لـ"علم العمران" هو ابتعاده عن الخطأ في الاستدلال على الأحكام، وقد كان لذلك أثر بالغ في منهجه وطرائقه التي مكنته من التوصل إلى فهم ظواهر الاجتماع وطبيعتها وكيفية تغيرها، ويسرت له السبل للوصول في مسألة من مسائلها إلى رأي جعله قانونا أو مبدأ عاما أو نظرية. وتتجلى عبقريته في قدرته المنهجية وعقليته التي تمتلك المنطق السليم، والتي ساعدته في وضع قواعد منهجية يبيّن دقائقها وأسرارها معتمدا في ذلك الشرح والتحليل، ويمكن الإشارة إلى أهمها:

الشك والتمحيص: يعد الشك والتمحيص من الأساليب النقدية التي انطلق منها ابن خلدون في دراسته للظواهر الاجتماعية بحثا عن تقصي أسباب الكذب في الروايات والأخبار، وقد ورد في مقدمته أمثلة وشواهد تمثل قاعدته تلك في الشك وفي الاستدلال المنطقي، فأورد تحقيقه السكاني لما أورده المسعودي والمؤرخون عن أعداد جيوش إسرائيل وأردفه بتحقيق عسكري وجغرافي، كما أورد تحقيقا سريا يبحث بدقة وعمق في أسباب نكبة الرشيد للبرامكة، وما روى عن قصة العباسة مع جعفر بن يحي بن خالد مولاه[10]. وإن دلّ ذلك على شيء فإنما يدل على أن ابن خلدون لم يكن يقنع بمجرد الكشف عما وقع، حدثا كان أو فعلا ولا بمجرد وقوع ما وقع، بل كان مولعا بالبحث عن العلل الكامنة والتفتيش عن الأسباب الخفية والظاهرة، وهذه الطريقة ليست بالأمر الهين لأنها تحتاج إلى قسط كبير من المعرفة، وكما يشير ابن خلدون «لا يمكن تمحيص أي خبر من أخبار البشر التي تتناول اجتماعهم وتعاونهم وتنظيمهم الاجتماعي، الذي هو العمران إذا لم يكن عارفا بقواعد السياسة وطبائع الموجودات واختلاف الأمم والبقاع والأعمار في السير والأخلاق والنحل والمذاهب وسائر الأحوال»[11]. وقاعدة الشك التي بني عليها ابن خلدون أحكامه تذكرنا بقاعدة الشك المنهجي عند "ديكارت"، والتي جعلته يشك في صدق جميع الآراء سعيا منه إلى تأسيس الأسس الجوهرية للعلم...

القياس بالشاهد وبالغائب: إن المنطق المنهجي الذي يتحلى به ابن خلدون في استخلاص أحكامه يضيف مسألة القياس بالشاهد والغائب حيث يلجأ إليه العقل حين يكون فيه الاستنتاج المباشر غير ممكن انطلاقا من مبدأ مفاده أن العلة الواحدة إذا وجدت تحت ظروف متشابهة أنتجت معلولا متشابها وأن السبب الواضح ينتج تحت

ظروف مماثلة النتيجة نفسها[12]. وتمثل حركة المجتمعات العربية وحدة التحليل الأساسية بالنسبة لابن خلدون مراعيا في ذلك إطارها الزمني والتاريخي.

السبر والتقسيم: إن حركة الفكر الكبرى التي تعني حركة العقل بين المجهول والمعلوم عند ابن خلدون تعتمد أساسا على أهم قاعدة منهجية ألا وهي "السبر والتقسيم" ذلك لأنهما عمليتان أساسيتان للبرهان بوصفهما مسلكين أو دليلين لإثبات العلة، والتقسيم هو حصر الأوصاف التي توجد في الأصل والتي تصلح للعلية في بادي الرأي، والسبر هو إبطال ما لا يصلح منها، فيتعين الباقي للعلية والتركيز على الأوصاف التي تتناسب معها[13]. وهناك أمثلة كثيرة لعمليتي السبر والتقسيم اللتين اعتمد عليهما ابن خلدون اعتمادا ظاهرا في مقدمته لبيان العلة، ومن أوضح هذه الأمثلة وبخاصة فيما يتعلق بالتقسيم وما ورد في الفصل الذي كتبه في وجوه المعاش وأصنافه ومذاهبه[14].

وتمثل هذه القاعدة المنهجية التي هي محور الاستبطان الاجتماعي حجر الزاوية في البناء الفكري العملاق وهو "المقدمة" نقطة الانطلاق لتأسيسه للقاعدة الخامسة وهي الحيطة عند التعميم التي تعتمد على اختيار عدد محدود من الحالات اختيارا علميا منظما يمكن من الانتقال من الحكم على الحقائق غير المشاهدة من خلال تحقيق تجريبي يقوم به الباحثون بإرادتهم ووفق تدبير خاص منهم، والاستنتاج لا يصدق إلا إذا صدقت المبادئ وثبتت صحة الفرضيات[15]. وصفوة القول إن أصالة ابن خلدون ومنهجيته العلمية الدقيقة اعتمدت الدلائل العقلية والمنطقية، انطلقت من ملاحظة الوقائع واستقراء الحوادث، ومن ثمة إلى صياغة مفاهيم وقوانين ونظريات لا تزال تتسم بالسبق وتدلل على عظمة هذا العلامة الذي قدم الكثير للبحث العلمي في إطار ما اصطلح عليه بعلم الاجتماع العمراني على أساس منهجي نقدي يكاد يكون غير مسبوق.

الهوامش والإحالات :

1 – د/ أحمد الخشاب، التفكير الاجتماعي دراسة تكاملية للنظرية الاجتماعية، 1981، ص301.

2 – إدريس خضير، التفكير الاجتماعي الخلدوني وعلاقته ببعض النظريات الاجتماعية، ديوان المطبوعات الجامعية، ص33.

3 – ابن خلدون، المقدمة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ص12.

4 – المصدر نفسه، ص04.

5 - المصدر نفسه، ص06.

6 – نجوى قصاب حسن، التفكير الاجتماعي عند العرب، مطبوعات جامعة دمشق، 1989، ص152.

7 – عبد الغني مغربي، تعريب محمد الشريف دالي حسين، ديوان المطبوعات الجامعية، 1988، ص75.

8 - إدريس خضير، التفكير الاجتماعي الخلدوني، ص58.

9 - نجوى قصاب حسن، التفكير الاجتماعي عند العرب، ص:

10 – المرجع نفسه، ص151.

11 – المقدمة، ص28.

12 – فرحات صالح، جدلية العلاقة بين الفكر العربي والتراث، رؤية نقدية، دار الحداثة، 1982، ص91.

13 – حسن الساعاتي، علم الاجتماع الخلدوني، قواعد المنهج، دار النهضة العربية، 1981، ص91.

14 – المرجع نفسه، ص179.

15 – عزيز العظمة، ابن خلدون وتاريخيته، ترجمة عبد الكريم ناصف، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ص129.